



خطبة صلاة الجمعة 8 / 2 / 2019 للشيخ الطبيب محمد خير الشَّعَال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

### (كيف أكتسب الأخلاق الحسنة؟)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: 83].  
قال ابن كثير: هم الشباب.

أخرج الحاكم والبيهقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

أيها الإخوة: نحن في الخطبة الثانية والعشرين من سلسلة (هجوم الشباب).

عنوان خطبة اليوم: كيف أكتسب الأخلاق الحسنة؟

أرى صاحبي كريم اليد وأنا أحب هذا الخلق منه والناس يحبون؛ ولكني لست مثله في الكرم، ولعلني قريب من البخل!

وأرى أخي طيب المعشر يحبه الناس ويألفونه؛ بينما أجدني صعب المراس عسر التعامل مع الآخرين!

وأرى قريبني فناناً في بر والديه، ودعاؤهما له لا يتوقف ولا أراي مثله في البر!

وأرى صديقي ثابتاً على مبادئه محافظاً على التزامه؛ بينما أجدني ضعيفاً في بعض موافقي، أضحي بمبادئني لألبي طلب الآخرين!

إنني أفرح لكل أصحابي وأرحامي بأخلاقهم الحسنة ويهمني أن أكون مثلهم، فكيف أكتسب الأخلاق الحسنة؟

يعلم الشاب المسلم أن الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق، فالخلق الحسن ثلث الدين، ولن يدخل الجنة إلا حسن الخلق، ويرى الناجحين في أعمالهم الدنيوية يتحلون بقدر عال من الخلق الحسن، فيسأل: كيف اكتسب الأخلاق الحسنة؟ وللإجابة عن هذا السؤال أعددت هذه الخطبة.

### أيها الإخوة:

الخلق: هو السَّجِيَّة والطبع. وعَرَّفَه الإمام الغزالي بأنه: (هيئةٌ في النفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر، من غير حاجة إلى فكر وروية).

والناس مع الأخلاق الحسنة ثلاثة أصناف فموهوب ومكتسب وغافل، فالموهوب يطبعه الله تعالى على خلق نبيل موهبة من الله وفضلاً، ومكتسب محتاج إلى التدريب على ذاك الخلق والتطبع به حتى يصبح طبعاً له وخلقاً، والغافل لا يبالي أحسنَ خلقه أو ساء نسأل الله أن يوقظه من غفلته وينبّهه من نومته.

وقد طبع الله كلاً منا على بعض الخلال الحميدة، وكلفه باكتساب مالم يطبع عليه، فهذا كريم من صغره، وذاك شجاع من وقت الصبا، وثالث صبور على الصعاب منذ حداثة سنه، ورابع متسامح لا يحمل الضغينة، وخامس رحيم القلب، ... وهكذا.

فالخلق متساوون في التشريف والتكليف، شرفك الله بأن طبعك على بعض الأخلاق الحسنة وكلفك باكتساب الأخرى، بينما شرف غيرك بهذه الأخرى وكلفه باكتساب مافاته، فمهما يكن فيك من أخلاق حميدة فالزمها واشكر الله تعالى عليها، ومهما فاتك منها فتدرب عليه.

وإليكم طرقاً خمسة تعين على كسب الأخلاق الحميدة، والتخلي عن الذميمة: الأسرة والمعلم والصاحب والمجاهدة والدعاء.

## 1- الأسرة:

أول مكان يتلقى فيه المرء معتقداته وأفكاره وقيمه ومعارفه، أسرته، وهو مولود على الفطرة وأبواه يثبتانه أو يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

فهاهو سيدنا لقمان الأب المربي يغرس في ولده العقيدة الصحيحة، والأخلاق الرشيدة، فيستحق بذلك أن يكون اسمه مخلداً في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (I7) وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (I8) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْصُصْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 17 - 19].

فنحن بحاجة إلى أبٍ يربي كحاجتنا إلى أبٍ يُغذي، وبحاجة إلى أمٍ مُعلِّمة كحاجتنا إلى أمٍ مُطعِمة. وإنَّ من أكبر الفواجع أن ينشغل الأب عن تربية أولاده بجمع ماله وأصحابه، وأن تخرج الأم من بيتها فلا تتفرغ لغرس العقائد والأخلاق في أولادها، ونصيحتي لكل شاب مقبل على الزواج ولكل فتاة يقرع بابها الخاطبون أن يجعلوا من ضمن معايير اختيار الزوج والزوجة أن يكون صالحاً لتربية الأولاد في المستقبل. ويعينه على معرفة صلاحه من عدمه أن يختاره من أسرة مربية فاضلة، لأن العرق دساس.

## 2- المعلم:

يتعلم المرء بعينه أكثر مما يتعلمه بأذنيه، فعندما ترى معلمك يجسد الأخلاق قولاً وفعلاً، تنطبع صورة الخلق العالي فيك فلا تنساها، عندما ترى معلمك صادق الوعد والكلمة، عفيف اللسان واليد، مؤدَّب المشية والحديث، ملتزم الآداب مع من حوله... فلن تنسَ هذه الأخلاق في حياتك.

سئل الحسن البصري عن عمرو بن عبيد فقال للسائل: (سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكان الأنبياء ربه،... إن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطناً ولا باطناً أشبه بظاهر منه) [مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي].

لما خرج العز بن عبد السلام من الشام إلى مصر امتنع مفتي الديار المصرية وحافظها وزاهدها الإمام عبد العظيم المنذري-صاحب الترغيب والترهيب- من الإفتاء وقال: (كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه) [طبقات الشافعية الكبرى للسبكي].

عندما تصحب العالم يعلمك الأدب بفعله قبل قوله، وبجمله قبل مقاله.

### 3- صاحب الصادق:

لا أمل القول أن كلمة السر في صلاح الصالحين بعد توفيق الله هي صاحب، فإذا صاحبت الكبار صرت كبيراً، وإذا صاحبت الصغار أصابك الصغار، إذا صاحبت الكرام علموك الكرم، وإذا صاحبت اللئام علموك اللؤم، إذا صاحبت صاحب الأخلاق الحسنة أصابتك عدوى الأخلاق الحسنة، وإذا صاحبت صاحب الأخلاق السيئة أصابتك عدوى أخلاقه.

كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب آية في الجود والعطاء، حتى كاد لا يُبقي في يده مالاً من جوده وعطائه، وقد روي أنه خرج يوماً يتنزه حتى تخطى بيوت المدينة، فرأى قطعة أرض فيها نخيل وبها غلامٌ بسيط يرعى أغناماً، وقد حان وقت غدائه ففتح صرة كانت معه بها ثلاثة أرغفة، ولما همَّ بأكل أحدها إذا كلب يلهث من الجوع والظمأ قد حضر إليه، فألقى إليه الرغيف فالتهمه، فألقى له الثاني فالتث، فعجب ابن جعفر ونادى الغلام، والغلام لا يعرفه. فقال له: يا فتى ما هو قوت يومك؟ قال: ما قد رأيت. لأني أرى هذا الغنم لصاحبه. قال: وماذا تصنع؟ قال: أطوي يومي على الجوع! قال وما حملك على هذا؟! قال: إنَّ أرضنا هذه لا يأتي إليها الكلاب، فهذا الكلب لا بد أنه جاء من المدينة ورأيت يقصدي فاستحييت من الله أن أردّه جائعاً! فعجب عبد الله وقال: يقولون إني جواد وهذا الغلام أجود مني! ثم اشترى الأغنام من صاحبها واشترى الأرض بما عليها من نخيل، ووهب الغلام تلك الأشياء.

فعندما تخالط أهل الخلق الحسن وتصاحبهم تسري إليك منهم الأخلاق الحسنة، وعكسه بعكسه.

### 4- المجاهدة:

إنَّ من طبيعة النفس أنها لا تحب الالتزام بالآداب الرفيعة والأخلاق النبيلة، فإذا أردت أن تزداد أخلاقك رفعةً فعليك بمجاهدة نفسك ومغالبتها، واحملها حملاً على الخلق الحسن.

رحم الله البوصيري عندما أنشد في البردة يقول:

وإنّهما محضّاك النّصح فأنّهم	وجاهد النفس والشيطان واعصهما
حُبّ الرّضاع وإنّ تفضّمه ينفطم	والنفس كالطّفل إنّ تهمّله شَبّ على
إنّ الهوى ما تولى يُضمّ أو يصم	فاصرف هواها وحاذر أنّ تولّيه
من حيث لم يدر أنّ السّم في الدّسم	كم حسّنت لذة للمرء قاتلة

يقول الإمام الغزالي: (فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود، فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد، وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه) [إحياء علوم الدين].

## 5-الدعاء:

كان رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، دَعَا: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ» [مسلم].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي، فَأَحْسِنْ خُلُقِي» [أحمد].

وبعد أيها الشباب:

هذه خمسة يكتسب بها أحدكم الخلق الحميد: الأسرة، والمعلم، والصاحب الصادق، والمجاهدة، والدعاء.

اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها وأنت مولاها، اللهم خلقنا بأخلاق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأدبنا بآدابه ، اللهم كما حسنت خلقنا فحسن أخلاقنا.

والحمد لله رب العالمين